أيها الولد

نصيحة المتعلمين وموعظتهم ليعملوا
ويمزوا علما نافعا
من غيره

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزلي

بالمعنى على فسانترين

31/10/2021 12:54

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ.

اعْلَمْ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الطَّلَبَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ لَازَمَ خِدْمَةَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ زَيْنِ الدِّينِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَبِي حَامِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ، قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ، وَاشْتَغَلَ بِالتَّحْصِيلِ وَقِرَاءَةِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ حَتَّى جَمَعَ دَقَائِقَ الْعُلُومِ، وَاسْتَكْمَلَ فَضَائِلَ النَّفْسِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَفَكَّرَ يَوْمًا فِي حَالِ نَفْسِهِ، وَخَطَرَ عَلَى بَالِهِ، وَقَالَ: إِنِّي قَرَأْتُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ، وَصَرَفْتُ رَيْعَانَ عُمْرِي عَلَى تَعَلُّمِهَا وَجَمْعِهَا؛ وَالْآنَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَ أَيَّ نَوْعِهَا يَنْفَعُنِي غَدًا وَيُؤْنِسُنِي فِي قَبْرِي، وَأَيُّهَا لَا يَنْفَعُنِي حَتَّى أَتْرُكَهُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ». فَاسْتَمَرَّتْ هٰذِهِ الْفِكْرَةُ حَتَّى كَتَبَ إِلَى حَضْرَةِ الشَّيْخِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى اسْتِفْتَاءً وَسَأَلَهُ مَسَائِلَ وَالْتَمَسَ نَصِيحَةً وَدُعَاءً. قَالَ: وَإِنْ كَانَ مُصَنَّفَاتُ الشَّيْخِ كَالْإِحْيَاءِ وَغَيْرِهِ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَابِ مَسَائِلِي، لٰكِنْ مَقْصُودِي أَنْ يَكْتُبَ الشَّيْخُ حَاجَتِي فِي وَرَقَاتٍ تَكُونُ مَعِي مُدَّةَ حَيَاتِي، وَأَعْمَلُ بِمَا فِيهَا مُدَّةَ عُمْرِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. فَيَكْتُبُ الشَّيْخُ هٰذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِ فِي جَوَابِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

اعْلَمْ، أَيُّهَا الْوَلَدُ وَالْمُحِبُّ الْعَزِيزُ -أَطَالَ اللهُ بَقَاكَ بِطَاعَتِهِ وَسَلَكَ بِكَ سَبِيلَ أَحِبَّائِهِ- أَنَّ مَنْشُورَ النَّصِيحَةِ يُكْتَبُ مِنْ مَعْدَنِ الرِّسَالَةِ، إِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَكَ مِنْهُ نَصِيحَةٌ فَأَيُّ حَاجَةٍ لَكَ فِي نَصِيحَتِي، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْكَ فَقُلْ لِي: مَاذَا حَصَّلْتَ فِي هٰذِهِ السِّنِينَ الْمَاضِيَةِ؟

31/10/2021 12:55

أَيُّهَا الْوَلَدُ، مِنْ جُمْلَةِ مَا نَصَحَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَلَامَةُ إِعْرَاضِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ اشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ. وَإِنِ امْرُؤٌ ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهِ فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ، لَجَدِيرٌ أَنْ تَطُولَ عَلَيْهِ حَسْرَتُهُ، وَمَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَغْلِبْ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إِلَى النَّارِ». وَفِي هٰذِهِ النَّصِيحَةِ كِفَايَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، النَّصِيحَةُ سَهْلَةٌ وَالْمُشْكِلُ قَبُولُهَا، لِأَنَّهَا فِي مَذَاقِ مُتَّبِعِي الْهَوَى مُرَّةٌ، إِذِ الْمَنَاهِي مَحْبُوبَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ، وَعَلَى الْخُصُوصِ لِمَنْ كَانَ طَالِبَ الْعِلْمِ الرَّسْمِيِّ، وَمُشْتَغِلًا فِي فَضْلِ النَّفْسِ، وَمَنَاقِبِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يَحْسَبُ أَنَّ الْعِلْمَ الْمُجَرَّدَ لَهُ سَيَكُونُ نَجَاتَهُ وَخَلَاصَهُ فِيهِ، وَأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَمَلِ. وَهٰذَا اعْتِقَادُ الْفَلَاسِفَةِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ! لَا يَعْلَمُ هٰذَا الْمَغْرُورُ أَنَّهُ حِينَ حَصَلَ الْعِلْمُ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ تَكُونُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ آكَدَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ اللهُ بِعِلْمِهِ».

وَرُوِيَ أَنَّ الْجُنَيْدَ قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا الْخَبَرُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ؟ قَالَ: «طَاحَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ، وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا رُكَيْعَاتٌ رَكَعْنَاهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، لَا تَكُنْ مِنَ الْأَعْمَالِ مُفْلِسًا، وَلَا مِنَ الْأَحْوَالِ خَالِيًا، وَتَيَقَّنْ أَنَّ الْعِلْمَ الْمُجَرَّدَ لَا يَأْخُذُ بِالْيَدِ، مِثَالُهُ لَوْ كَانَ عَلَى رَجُلٍ فِي بَرِّيَّةٍ عَشَرَةُ أَسْيَافٍ هِنْدِيَّةٍ مَعَ أَسْلِحَةٍ أُخْرَى، وَكَانَ الرَّجُلُ شُجَاعًا وَأَهْلَ حَرْبٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَسَدٌ عَظِيمٌ مُهِيبٌ، فَمَا ظَنُّكَ؟ هَلْ تَدْفَعُ الْأَسْلِحَةُ شَرَّهُ

31/10/2021 12:55

عَنْهُ بِلَا اسْتِعْمَالِهَا وَضَرْبِهَا؟ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا لَا تَدْفَعُ إِلَّا بِالتَّحْرِيكِ وَالضَّرْبِ. فَكَذَا لَوْ قَرَأَ رَجُلٌ مِائَةَ أَلْفِ مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَتَعَلَّمَهَا، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا، لَا تُفِيدُهُ إِلَّا بِالْعَمَلِ. وَمِثْلُهُ أَيْضًا لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ حَرَارَةٌ وَمَرَضٌ صَفْرَاوِيٌّ يَكُونُ عِلَاجُهُ بِالسُّكَنْجَبِينِ وَالْكَشْكَابِ، فَلَا يَحْصُلُ الْبُرْءُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِهِمَا.

كَرَمِيِّ دُو هَزَارِ رَطْلِ هَمِّي بِيمَائِي * تَامِي نَخُورِي نَبَاشَدْتْ شَيْدَئِي (١)

وَلَوْ قَرَأْتَ الْعِلْمَ مِائَةَ سَنَةٍ، وَجَمَعْتَ أَلْفَ كِتَابٍ، لَا تَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَّا بِالْعَمَلِ، «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»، «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا»، «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا»، «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا».

وَمَا تَقُولُ فِي هٰذَا الْحَدِيثِ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»؟.

وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَتَصْدِيقٌ بِالْجَنَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ،

(١) تَرْجَمَ هٰذَا الْبَيْتَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ الشَّيْخُ مُحَمَّدْ أَمِين الْكُرْدِي فَقَالَ:

لَوْ كِلْتَ أَلْفَيْ رِطْلِ خَمْرٍ لَمْ تَكُنْ * لِتَصِيرَ نَشْوَانًا إِذَا لَمْ تَشْرَبِ

وَدَلِيلُ الْأَعْمَالِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى، وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ يَبْلُغُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَسْتَعِدَّ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، لِأَنَّ «رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ». وَلَوْ قِيلَ أَيْضًا: يَبْلُغُ بِمُجَرَّدِ الْإِيمَانِ قُلْنَا: نَعَمْ، لَكِنْ مَتَى يَبْلُغُ؟ وَكَمْ مِنْ عَقَبَةٍ كَؤُودٍ يَقْطَعُهَا إِلَى أَنْ يَصِلَ؟ فَأَوَّلُ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ عَقَبَةُ الْإِيمَانِ، وَإِنَّهُ هَلْ يَسْلَمُ مِنْ سَلْبِ الْإِيمَانِ أَمْ لَا؟ وَإِذَا وَصَلَ هَلْ يَكُونُ خَائِبًا مُفْلِسًا؟ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا، يَا عِبَادِيَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَاقْتَسِمُوهَا بِأَعْمَالِكُمْ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، مَا لَمْ تَعْمَلْ لَمْ تَجِدِ الْأَجْرَ. حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى سَبْعِينَ سَنَةً، فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجْلُوَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يُخْبِرُهُ أَنَّهُ مَعَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ لَا يَلِيقُ بِهِ دُخُولُ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا بَلَّغَهُ قَالَ الْعَابِدُ: نَحْنُ خُلِقْنَا لِلْعِبَادَةِ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ. فَلَمَّا رَجَعَ الْمَلَكُ قَالَ: إِلَهِي أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «إِذَا هُوَ لَمْ يُعْرِضْ عَنْ عِبَادَتِنَا فَنَحْنُ مَعَ الْكَرَمِ لَا نُعْرِضُ عَنْهُ، اشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ».

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا»، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِدُونِ الْجُهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُتَمَنٍّ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِبَذْلِ الْجُهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُسْتَغْنٍ». وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «طَلَبُ الْجَنَّةِ بِلَا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ». وَقَالَ: «عَلَامَةُ الْحَقِيقَةِ تَرْكُ مُلَاحَظَةِ الْعَمَلِ لَا تَرْكُ الْعَمَلِ».

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْأَحْمَقُ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ تَعَالَى الْأَمَانِيَ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، كَمْ مِنْ لَيَالٍ أَحْيَيْتَهَا بِتَكْرَارِ الْعِلْمِ، وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَحَرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ؟ لَا أَعْلَمُ مَا كَانَ الْبَاعِثَ فِيهِ؟ إِنْ كَانَ نَيْلَ عَرَضِ الدُّنْيَا وَجَذْبَ حِطَامِهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا وَالْمُبَاهَاةَ عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَمْثَالِ فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لَكَ، وَإِنْ كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْذِيبَ أَخْلَاقِكَ وَكَسْرَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَطُوبَى لَكَ ثُمَّ طُوبَى لَكَ، وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ شِعْرًا:

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ * وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلُ

أَيُّهَا الْوَلَدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، أَيُّ شَيْءٍ حَاصِلٌ لَكَ مِنْ تَحْصِيلِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالْخِلَافِ وَالطِّبِّ وَالدَّوَاوِينِ وَالْأَشْعَارِ وَالنُّجُومِ وَالْعَرُوضِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ غَيْرَ تَضْيِيعِ الْعُمُرِ بِخِلَافِ ذِي الْجَلَالِ. إِنِّي رَأَيْتُ فِي إِنْجِيلِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مِنْ سَاعَةٍ أَنْ يُوضَعَ الْمَيِّتُ عَلَى الْجَنَازَةِ إِلَى أَنْ يُوضَعَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ يَسْأَلُ اللهُ بِعُظْمَتِهِ مِنْهُ أَرْبَعِينَ سُؤَالًا. أَوَّلُهَا يَقُولُ: عَبْدِي طَهَّرْتَ مَنْظَرَ الْخَلْقِ سِنِينَ وَمَا طَهَّرْتَ مَنْظَرِي سَاعَةً. وَكُلَّ يَوْمٍ يَنْظُرُ فِي قَلْبِكَ يَقُولُ: مَا تَصْنَعُ لِغَيْرِي وَأَنْتَ مَحْفُوفٌ بِخَيْرِي. أَمَا أَنْتَ فَأَصَمُّ لَا تَسْمَعُ!»

31/10/2021 12:55

أَيُّهَا الْوَلَدُ، الْعِلْمُ بِلَا عَمَلٍ جُنُونٌ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَكُونُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يُبْعِدُكَ الْيَوْمَ عَنِ الْمَعَاصِي وَلَا يُحْمِلُكَ عَلَى الطَّاعَةِ، لَنْ يُبْعِدَكَ غَدًا عَنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِذَا لَمْ تَعْمَلْ بِعِلْمِكَ الْيَوْمَ وَلَمْ تُدَارِكِ الْأَيَّامَ الْمَاضِيَةَ تَقُولُ غَدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا» فَيُقَالُ: «يَا أَحْمَقُ، أَنْتَ مِنْ هُنَاكَ تَجِيءُ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، اجْعَلِ الْهِمَّةَ فِي الرُّوحِ، وَالْهَزِيمَةَ فِي النَّفْسِ، وَالْمَوْتَ فِي الْبَدَنِ، لِأَنَّ مَنْزِلَكَ الْقَبْرُ. وَأَهْلُ الْمَقَابِرِ يَنْتَظِرُونَكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مَتَى تَصِلُ إِلَيْهِمْ؟ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ بِلَا زَادٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هٰذِهِ الْأَجْسَادُ قُفَصُ الطُّيُورِ أَوْ إِصْطَبْلُ الدَّوَابِّ، فَتَفَكَّرْ فِي نَفْسِكَ؛ مِنْ أَيِّهِمَا أَنْتَ؟ إِنْ كُنْتَ مِنَ الطُّيُورِ الْعَلَوِيَّةِ فَحِينَ تَسْمَعُ طِنِينَ طَبْلٍ «ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ» تَطِيرُ صَاعِدًا إِلَى أَنْ تَقْعُدَ فِي أَعَالِي بُرُوجِ الْجِنَانِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ مِنْ مَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ» وَالْعِيَاذُ بِاللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الدَّوَابِّ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أُولٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» فَلَا تَأْمَنْ انْتِقَالَكَ مِنْ زَاوِيَةِ الدَّارِ إِلَى هَاوِيَةِ النَّارِ. وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أُعْطِيَ شُرْبَةَ مَاءٍ بَارِدٍ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ وَغُشِيَ عَلَيْهِ وَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ: مَا لَكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ أُمْنِيَةَ أَهْلِ النَّارِ يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: «أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، لَوْ كَانَ الْعِلْمُ الْمُجَرَّدُ كَافِيًا لَكَ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ سِوَاهُ

لَكَانَ نِدَاءُ «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ ضَائِعًا بِلَا فَائِدَةٍ. وَرُوِيَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ذَكَرُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «يَا فُلَانُ، لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ يَدَعُ صَاحِبَهُ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ» أَمْرٌ «وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» شُكْرٌ، «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» ذِكْرٌ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثَلَاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَى: صَوْتُ الدِّيكِ، وَصَوْتُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَصَوْتُ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ». قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ رِيحًا تَهُبُّ بِالْأَسْحَارِ تَحْمِلُ الْأَذْكَارَ وَالِاسْتِغْفَارَ إِلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ». وَقَالَ أَيْضًا: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ اللَّيْلِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: أَلَا لِيَقُمِ الْعَابِدُونَ، فَيَقُومُونَ وَيُصَلُّونَ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِي شَطْرِ اللَّيْلِ «أَلَا لِيَقُمِ الْقَانِتُونَ، فَيَقُومُونَ وَيُصَلُّونَ إِلَى السَّحَرِ. فَإِذَا كَانَ السَّحَرُ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمِ الْمُسْتَغْفِرُونَ، فَيَقُومُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ. فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمِ الْغَافِلُونَ، فَيَقُومُونَ مِنْ فِرَشِهِمْ كَالْمَوْتَى نَشَرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، رُوِيَ فِي وَصَايَا لُقْمَانَ الْحَكِيمِ لِابْنِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا بُنَيَّ لَا يَكُونَنَّ الدِّيكُ أَكْيَسَ مِنْكَ، يُنَادِي بِالْأَسْحَارِ وَأَنْتَ نَائِمٌ». وَلَقَدْ

أَحْسَنَ مَنْ قَالَ شِعْرًا:

لَقَدْ هَتَفَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ * عَلَى فَنَنٍ وَهْنًا، وَإِنِّي لَنَائِمُ
كَذِبْتُ، وَبَيْتِ اللهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقًا * لَمَا سَبَقَتْنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ
وَأَزْعَمُ أَنِّي هَائِمٌ ذُو صَبَابَةٍ * لِرَبِّي فَلَا أَبْكِي وَتَبْكِي الْبَهَائِمُ

أَيُّهَا الْوَلَدُ، خُلَاصَةُ الْعِلْمِ أَنْ تَعْلَمَ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ مَا هِيَ؟.

اعْلَمْ أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ مُتَابَعَةُ الشَّارِعِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، يَعْنِي: كُلَّ مَا تَقُولُ وَتَفْعَلُ وَتَتْرُكُ يَكُونُ بِاقْتِدَاءِ الشَّرْعِ، كَمَا لَوْ صُمْتَ يَوْمَ الْعِيدِ وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ تَكُونُ عَاصِيًا، أَوْ صَلَّيْتَ فِي ثَوْبٍ مَغْصُوبٍ، وَإِنْ كَانَتْ صُورَةَ عِبَادَةٍ تَأْثَمُ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُكَ وَفِعْلُكَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، إِذِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ بِلَا اقْتِدَاءِ الشَّرْعِ ضَلَالَةٌ، وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تَغْتَرَّ بِالشَّطْحِ وَطَامَّاتِ الصُّوفِيَةِ، لِأَنَّ سُلُوكَ هٰذَا الطَّرِيقِ يَكُونُ بِالْمُجَاهَدَةِ وَقَطْعِ شَهْوَةِ النَّفْسِ وَقَتْلِ هَوَاهَا بِسَيْفِ الرِّيَاضَةِ لَا بِالطَّامَّاتِ وَالتُّرَّهَاتِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللِّسَانَ الْمُطْلَقَ، وَالْقَلْبَ الْمُطْبَقَ الْمَمْلُوءَ بِالْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ عَلَامَةُ الشَّقَاوَةِ؛ فَإِذَا لَمْ تَقْتُلِ النَّفْسَ بِصِدْقِ الْمُجَاهَدَةِ فَلَنْ يَحْيَا قَلْبُكَ بِأَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ بَعْضَ مَسَائِلِكَ الَّتِي سَأَلْتَنِي عَنْهَا لَا يَسْتَقِيمُ جَوَابُهَا بِالْكِتَابَةِ وَالْقَوْلِ، إِنْ تَبْلُغْ تِلْكَ الْحَالَةَ تَعْرِفْ مَا هِيَ، وَإِلَّا فَعِلْمُهَا مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ لِأَنَّهَا ذَوْقِيَّةٌ، وَكُلُّ مَا يَكُونُ ذَوْقِيًّا لَا يَسْتَقِيمُ وَصْفُهُ بِالْقَوْلِ كَحَلَاوَةِ الْحُلْوِ وَمَرَارَةِ الْمُرِّ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالذَّوْقِ. كَمَا حُكِيَ أَنَّ

31/10/2021 12:56

عَنِينًا كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ أَنْ عَرِّفْنِي لَذَّةَ الْمُجَامَعَةِ كَيْفَ تَكُونُ؟
فَكَتَبَ لَهُ فِي جَوَابِهِ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ حَسِبْتُكَ عَنِينًا فَقَطْ. وَالْآنَ
عَرَفْتُ أَنَّكَ عَنِينٌ وَأَحْمَقُ، لِأَنَّ هٰذِهِ اللَّذَّةَ ذَوْقِيَّةٌ إِنْ تَصِلْ إِلَيْهَا تَعْرِفْ،
وَإِلَّا لَا يَسْتَقِيمُ وَصْفُهَا بِالْقَوْلِ وَالْكِتَابَةِ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، بَعْضُ مَسَائِلِكَ مِنْ هٰذَا الْقَبِيلِ، وَأَمَّا الْبَعْضُ الَّذِي
يَسْتَقِيمُ لَهُ الْجَوَابُ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي «إِحْيَاءِ الْعُلُومِ» وَغَيْرِهِ، وَنَذْكُرُهَا هُنَا
نُبَذًا مِنْهُ وَنُشِيرُ إِلَيْهِ فَنَقُولُ:

قَدْ وَجَبَ عَلَى السَّالِكِ أُمُورٌ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: اعْتِقَادٌ صَحِيحٌ لَا يَكُونُ فِيهِ بِدْعَةٌ.

وَالثَّانِي: تَوْبَةٌ نَصُوحٌ لَا يَرْجِعُ بَعْدَهَا إِلَى الزَّلَّةِ.

وَالثَّالِثُ: اسْتِرْضَاءُ الْخُصُومِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَيْكَ حَقٌّ.

وَالرَّابِعُ: تَحْصِيلُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ قَدْرَ مَا تُؤَدِّي بِهِ أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَى، ثُمَّ
مِنَ الْعُلُومِ الْأُخْرَى مَا تَكُونُ بِهِ النَّجَاةُ.

حُكِيَ أَنَّ الشِّبْلِيَّ رَحِمَهُ اللهُ خَدَمَ أَرْبَعَمِائَةِ أُسْتَاذٍ، وَقَالَ: قَرَأْتُ أَرْبَعَةَ
آلَافِ حَدِيثٍ، ثُمَّ اخْتَرْتُ مِنْهَا حَدِيثًا وَاحِدًا وَعَمِلْتُ بِهِ، وَخَلَّيْتُ مَا
سِوَاهُ، لِأَنِّي تَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُ خَلَاصِي وَنَجَاتِي فِيهِ، وَكَانَ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ كُلُّهُ مُنْدَرِجًا فِيهِ فَاكْتَفَيْتُ بِهِ، وَذٰلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ بِقَدْرِ مَقَامِكَ فِيهَا،
وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيهَا، وَاعْمَلْ لِلّٰهِ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ،

31/10/2021 12:56

وَاعْمَلْ لِلنَّارِ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَيْهَا».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، إِذَا عَلِمْتَ هٰذَا الْحَدِيثَ، لَا حَاجَةَ إِلَى الْعِلْمِ الْكَثِيرِ، وَتَأَمَّلْ فِي حِكَايَاتٍ أُخْرَى، وَذٰلِكَ أَنَّ حَاتِمًا الْأَصَمَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّقِيقِ الْبَلْخِيِّ، رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمَا، فَسَأَلَهُ يَوْمًا قَالَ: صَاحَبْتَنِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا حَصَلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: حَصَلْتُ ثَمَانِيَ فَوَائِدَ مِنَ الْعِلْمِ، وَهِيَ تَكْفِينِي مِنْهُ، لِأَنِّي أَرْجُو خَلَاصِي وَنَجَاتِي فِيهَا. فَقَالَ شَقِيقٌ: مَا هِيَ؟ قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ:

(الْفَائِدَةُ الْأُولَى) أَنِّي نَظَرْتُ إِلَى الْخَلْقِ فَرَأَيْتُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَحْبُوبًا وَمَعْشُوقًا يُحِبُّهُ وَيَعْشَقُهُ، وَبَعْضُ ذٰلِكَ الْمَحْبُوبِ يُصَاحِبُهُ إِلَى مَرَضِ الْمَوْتِ، وَبَعْضُهُ إِلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّهُ وَيَتْرُكُهُ فَرِيدًا وَحِيدًا وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَتَفَكَّرْتُ وَقُلْتُ: أَفْضَلُ مَحْبُوبِ الْمَرْءِ مَا يَدْخُلُ فِي قَبْرِهِ وَيُؤَانِسُهُ فِيهِ، فَمَا وَجَدْتُهُ غَيْرَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَأَخَذْتُهَا مَحْبُوبًا لِي لِتَكُونَ سِرَاجًا لِي فِي قَبْرِي، وَتُؤَانِسَنِي فِيهِ وَلَا تَتْرُكَنِي فَرِيدًا.

(الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ الْخَلْقَ يَقْتَدُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَيُبَادِرُونَ إِلَى مُرَادَاتِ أَنْفُسِهِمْ، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى». وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صَادِقٌ، فَبَادَرْتُ إِلَى خِلَافِ نَفْسِي وَتَشَمَّرْتُ لِمُجَاهَدَتِهَا وَمَنْعِهَا عَنْ هَوَاهَا حَتَّى ارْتَاضَتْ لِطَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَانْقَادَتْ.

(الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يَسْعَى فِي جَمْعِ حُطَامِ

31/10/2021 12:56

الدُّنْيَا ثُمَّ يُمْسِكُهُ قَابِضًا يَدَهُ عَلَيْهِ، فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ» فَبَذَلْتُ مَحْصُولِي مِنَ الدُّنْيَا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى فَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ لِيَكُونَ ذُخْرًا لِي عِنْدَ اللهِ تَعَالَى:

(الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ الْخَلْقِ ظَنَّ شَرَفَهُ وَعِزَّهُ فِي كَثْرَةِ الْأَقْوَامِ وَالْعَشَائِرِ فَاغْتَرَّ بِهِمْ، وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ فِي ثَرْوَةِ الْأَمْوَالِ وَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ فَافْتَخَرُوا بِهَا، وَحَسِبَ بَعْضُهُمُ الشَّرَفَ وَالْعِزَّ فِي غَصْبِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ وَسَفْكِ دِمَائِهِمْ، وَاعْتَقَدَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ فِي إِتْلَافِ الْمَالِ وَإِسْرَافِهِ وَتَبْذِيرِهِ، وَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ» فَاخْتَرْتُ التَّقْوَى وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صَادِقٌ، وَظَنَّهُمْ وَحِسْبَانَهُمْ كُلَّهَا بَاطِلٌ زَائِلٌ.

(الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَذُمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْعِلْمِ، فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فَعَلِمْتُ أَنَّ الْقِسْمَةَ كَانَتْ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِي الْأَزَلِ فَمَا حَسَدْتُ أَحَدًا وَرَضِيتُ بِقِسْمَةِ اللهِ تَعَالَى.

(الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِغَرَضٍ وَسَبَبٍ، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا» فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ عَدَاوَةُ أَحَدٍ غَيْرِ الشَّيْطَانِ.

(الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ أَحَدٍ يَسْعَى بِجِدٍّ وَيَجْتَهِدُ بِمُبَالَغَةٍ

لِطَلَبِ الْقُوتِ وَالْمَعَاشِ بِحَيْثُ يَقَعُ بِهِ فِي شُبْهَةٍ وَحَرَامٍ، وَيُذِلُّ نَفْسَهُ وَيُنْقِصُ قَدْرَهُ، فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا». فَعَلِمْتُ أَنَّ رِزْقِي عَلَى اللهِ تَعَالَى وَقَدْ ضَمِنَهُ، فَاشْتَغَلْتُ بِعِبَادَتِهِ وَقَطَعْتُ طَمَعِي عَمَّنْ سِوَاهُ.

(الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مُعْتَمِدًا عَلَى شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، بَعْضُهُمْ إِلَى الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْمَالِ وَالْمُلْكِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْحِرْفَةِ وَالصِّنَاعَةِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا». فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَقَالَ شَقِيقٌ: وَفَّقَكَ اللهُ تَعَالَى، إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، فَوَجَدْتُ الْكُتُبَ الْأَرْبَعَةَ تَدُورُ عَلَى هٰذِهِ الْفَوَائِدِ الثَّمَانِيَةِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا كَانَ عَامِلًا بِهٰذِهِ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، قَدْ عَلِمْتَ مِنْ هَاتَيْنِ الْحِكَايَتَيْنِ أَنَّكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَكْثِيرِ الْعِلْمِ، وَالْآنَ أُبَيِّنُ لَكَ مَا يَجِبُ عَلَى سَالِكِ سَبِيلِ الْحَقِّ.

اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ شَيْخٌ مُرْشِدٌ مُرَبٍّ لِيُخْرِجَ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ مِنْهُ بِتَرْبِيَتِهِ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا خُلُقًا حَسَنًا. وَمَعْنَى التَّرْبِيَةِ يُشْبِهُ فِعْلَ الْفَلَّاحِ الَّذِي يَقْلَعُ الشَّوْكَ وَيُخْرِجُ النَّبَاتَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ مِنْ بَيْنِ الزَّرْعِ لِيَحْسُنَ نَبَاتُهُ وَيَكْمُلَ رَيْعُهُ، وَلَا بُدَّ لِلسَّالِكِ مِنْ شَيْخٍ يُؤَدِّبُهُ وَيُرْشِدُهُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، لِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ لِلْعِبَادِ رَسُولًا لِلْإِرْشَادِ إِلَى سَبِيلِهِ. فَإِذَا ارْتَحَلَ

31/10/2021 12:57

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ خَلَفَ الْخُلَفَاءُ فِي مَكَانِهِ حَتَّى يُرْشِدُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى. وَشَرْطُ الشَّيْخِ الَّذِي يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ نَائِبًا لِرَسُولِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ عَالِمًا، وَلَكِنْ لَا كُلُّ عَالِمٍ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ.

وَإِنِّي أُبَيِّنُ لَكَ بَعْضَ عَلَامَاتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ حَتَّى لَا يَدَّعِيَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ مُرْشِدٌ. فَنَقُولُ: مَنْ يُعْرِضُ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْجَاهِ، وَكَانَ قَدْ تَابَعَ لِشَخْصٍ بَصِيرٍ تَتَسَلْسَلُ مُتَابَعَتُهُ إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مُحْسِنًا رِيَاضَةَ نَفْسِهِ بِقِلَّةِ الْأَكْلِ وَالْقَوْلِ وَالنَّوْمِ، وَكَثْرَةِ الصَّلَوَاتِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ. وَكَانَ بِمُتَابَعَتِهِ ذَلِكَ الشَّيْخَ الْبَصِيرَ جَاعِلًا مُحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ لَهُ سِيرَةً كَالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْيَقِينِ وَالْقَنَاعَةِ وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْعِلْمِ وَالصِّدْقِ وَالْحَيَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَقَارِ وَالسُّكُونِ وَالتَّأَنِّي وَأَمْثَالِهَا، فَهُوَ إِذًا نُورٌ مِنْ أَنْوَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْلُحُ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَكِنْ وُجُودُ مِثْلِهِ نَادِرٌ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ. وَمَنْ سَاعَدَتْهُ السَّعَادَةُ فَوَجَدَ شَيْخًا كَمَا ذَكَرْنَا، وَقَبِلَهُ الشَّيْخُ يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَرِمَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. أَمَّا احْتِرَامُ الظَّاهِرِ فَهُوَ أَلَّا يُجَادِلَهُ، وَلَا يَشْتَغِلَ لَهُ بِالِاحْتِجَاجِ مَعَهُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ وَإِنْ عَلِمَ خَطَأَهُ، وَلَا يُلْقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجَادَتَهُ إِلَّا فِي وَقْتِ أَدَاءِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا فَرَغَ يَرْفَعُهَا، وَلَا يُكْثِرُ نَوَافِلَ الصَّلَاةِ بِحَضْرَتِهِ، وَيَعْمَلُ مَا يَأْمُرُهُ الشَّيْخُ مِنَ الْعَمَلِ بِقَدْرِ وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ. وَأَمَّا احْتِرَامُ الْبَاطِنِ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا يَسْمَعُ وَيَقْبَلُ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ لَا يُنْكِرُهُ فِي الْبَاطِنِ لَا فِعْلًا وَلَا قَوْلًا لِئَلَّا يَتَّسِمَ بِالنِّفَاقِ. وَإِنْ

31/10/2021 12:57

لَمْ يَسْتَطِعْ يَتْرُكُ صُحْبَتَهُ إِلَى أَنْ يُوَافِقَ بَاطِنُهُ ظَاهِرَهُ. وَيَحْتَرِزُ عَنْ مُجَالَسَةِ
صَاحِبِ السُّوءِ لِيَقْصُرَ وِلَايَةُ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَنْ صَحْنِ قَلْبِهِ،
فَيَصْفِي مِنْ لَوْثِ الشَّيْطَنَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ يَخْتَارُ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ التَّصَوُّفَ لَهُ خَصْلَتَانِ:

الْاِسْتِقَامَةُ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَالسُّكُونُ عَنِ الْخَلْقِ.

فَمَنِ اسْتَقَامَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحْسَنَ خُلُقَهُ بِالنَّاسِ وَعَامَلَهُمْ
بِالْحِلْمِ فَهُوَ صُوفِيٌّ. وَالْاِسْتِقَامَةُ أَنْ يَفْدِيَ حَظَّ نَفْسِهِ عَلَى أَمْرِ اللهِ تَعَالَى،
وَحُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ أَلَّا تُحْمِلَ النَّاسَ عَلَى مُرَادِ نَفْسِكَ، بَلْ تَحْمِلَ
نَفْسَكَ عَلَى مُرَادِهِمْ، مَا لَمْ يُخَالِفُوا الشَّرْعَ.

ثُمَّ إِنَّكَ سَأَلْتَنِي عَنِ الْعُبُودِيَّةِ وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا مُحَافَظَةُ أَمْرِ الشَّرْعِ.

وَثَانِيهَا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَقِسْمَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَثَالِثُهَا تَرْكُ رِضَا نَفْسِكَ فِي طَلَبِ رِضَا اللهِ تَعَالَى.

وَسَأَلْتَنِي عَنِ التَّوَكُّلِ وَهُوَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ اعْتِقَادُكَ بِاللهِ تَعَالَى فِيمَا
وَعَدَ، يَعْنِي تَعْتَقِدُ أَنَّ مَا قُدِّرَ لَكَ سَيَصِلُ إِلَيْكَ لَا مَحَالَةَ وَإِنِ اجْتَهَدَ
كُلُّ مَنْ فِي الْعَالَمِ عَلَى صَرْفِهِ عَنْكَ، وَمَا لَمْ يُكْتَبْ لَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ
سَاعَدَكَ جَمِيعُ الْعَالَمِ.

وَسَأَلْتَنِي عَنِ الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ كُلُّهَا لِلّٰهِ تَعَالَى وَلَا
يَرْتَاحُ قَلْبُكَ بِمَحَامِدِ النَّاسِ وَلَا تُبَالِي بِمَذَمَّتِهِمْ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرِّيَاءَ يَتَوَلَّدُ

31/10/2021 12:57

مِنْ تَعْظِيمِ الْخَلْقِ، وَعِلَاجُهُ أَنْ تَرَاهُمْ مُسَخَّرِينَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ وَتَحْسِبَهُمْ كَالْجَمَادَاتِ فِي عَدَمِ قُدْرَةِ إِيصَالِ الرَّاحَةِ وَالْمَشَقَّةِ لِتَخْلُصَ مِنْ مُرَاءَاتِهِمْ. وَمَتَى تَحْسِبُهُمْ ذَوِي قُدْرَةٍ وَإِرَادَةٍ لَنْ يَبْعُدَ عَنْكَ الرِّيَاءُ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، وَالْبَاقِي مِنْ مَسَائِلِكَ بَعْضُهَا مَسْطُورٌ فِي مُصَنَّفَاتِي فَاطْلُبْهُ ثَمَّةَ، وَكِتَابَةُ بَعْضِهَا حَرَامٌ. اعْمَلْ أَنْتَ بِمَا تَعْلَمُ لِيَنْكَشِفَ لَكَ مَا لَمْ تَعْلَمْ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، بَعْدَ الْيَوْمِ لَا تَسْأَلْنِي مَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِلِسَانِ الْجَنَانِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ». وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ: «فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا». وَلَا تَسْتَعْجِلْ حَتَّى تَبْلُغَ أَوَانَهُ يُكْشَفُ لَكَ وَتَرَاهُ «سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» فَلَا تَسْأَلْنِي قَبْلَ الْوَقْتِ، وَتَيَقَّنْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَّا بِالسَّيْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، بِاللهِ إِنْ تَسِرْ تَرَ الْعَجَائِبَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَابْذُلْ رُوحَكَ فَإِنَّ رَأْسَ هٰذَا الْأَمْرِ بَذْلُ الرُّوحِ، كَمَا قَالَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لِأَحَدِ تَلَامِذَتِهِ: «إِنْ قَدَرْتَ عَلَى بَذْلِ الرُّوحِ فَتَعَالَ، وَإِلَّا فَلَا تَشْتَغِلْ بِتُرَّهَاتِ الصُّوفِيَةِ».

أَيُّهَا الْوَلَدُ، إِنِّي أُنْصِحُكَ بِثَمَانِيَةِ أَشْيَاءَ، اقْبَلْهَا مِنِّي لِئَلَّا يَكُونَ عِلْمُكَ خَصْمًا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَعْمَلُ مِنْهَا أَرْبَعَةً وَتَدَعُ مِنْهَا أَرْبَعَةً.

أَمَّا اللَّوَاتِي تَدَعُ:

(فَأَحَدُهَا) أَلَّا تُنَاظِرَ أَحَدًا فِي مَسْأَلَةٍ مَا اسْتَطَعْتَ، لِأَنَّ فِيهَا آفَاتٍ كَثِيرَةً، فَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا، إِذْ هِيَ مَنْبَعُ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ كَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَالْحِقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْمُبَاهَاةِ وَغَيْرِهَا. نَعَمْ لَوْ وَقَعَ مَسْأَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ، وَكَانَتْ إِرَادَتُكَ فِيهَا أَنْ يُظْهِرَ الْحَقَّ وَلَا يُضَيَّعَ جَازَ الْبَحْثُ لَكِنْ لِتِلْكَ الْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا أَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ أَنْ يَنْكَشِفَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ.

وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْخَلَاءِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَلَإِ. وَاسْمَعْ إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ هَاهُنَا فَائِدَةً. وَاعْلَمْ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ الْقَلْبِ إِلَى الطَّبِيبِ، وَالْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَاهِلِينَ الْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ، وَالْعُلَمَاءَ الْأَطِبَّاءُ، وَالْعَالِمُ النَّاقِصُ لَا يُحْسِنُ الْمُعَالَجَةَ. وَالْعَالِمُ الْكَامِلُ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرِيضٍ. بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو قَبُولَ الْمُعَالَجَةِ وَالصَّلَاحِ، وَإِذَا كَانَتِ الْعِلَّةُ مُزْمِنَةً أَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ الْعِلَاجَ، فَحَذَاقَةُ الطَّبِيبِ فِيهِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَلَا تَشْتَغِلْ فِيهِ بِمُدَاوَاتِهِ، لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْعُمْرِ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَرَضَ الْجَهْلِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ وَالْبَاقِي لَا يَقْبَلُ. أَمَّا الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَأَحَدُهَا مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ، فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ الْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ فَلَا يَزِيدُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بُغْضًا وَعَدَاوَةً وَحَسَدًا. فَالطَّرِيقُ أَلَّا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ فَقَدْ قِيلَ:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا * إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ

فَيَنْبَغِي أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، وَالْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ النَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ».

وَالثَّانِي أَنْ تَكُونَ عِلَّتُهُ مِنَ الْحَمَاقَةِ، وَهُوَ أَيْضًا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ الْأَحْمَقِ». وَذَلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ بِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَنًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ عَلَى الْعَالِمِ الْكَبِيرِ الَّذِي مَضَى عُمْرُهُ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَهٰذَا الْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ عَلَى الْعَالِمِ الْكَبِيرِ، فَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ هٰذَا الْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ مِنَ الْحَمَاقَةِ. فَيَنْبَغِي أَلَّا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ.

وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا؛ وَكُلُّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الْأَكَابِرِ يُحْمَلُ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ، وَكَانَ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ، لَكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ الْحَقَائِقَ، فَلَا يَنْبَغِي الِاشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ».

وَأَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَاقِلًا فَهِمًا، لَا يَكُونَ مَغْلُوبَ الْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَحُبِّ الشَّهْوَةِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ،

31/10/2021 12:57

وَيَكُونَ طَالِبَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ.

(وَالثَّانِي) مِمَّا تَدَعُ هُوَ أَنْ تَحْذَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاعِظًا وَمُذَكِّرًا، لِأَنَّ فِيهِ آفَةً كَثِيرَةً، إِلَّا أَنْ تَعْمَلَ بِمَا تَقُولُ أَوَّلًا ثُمَّ تَعِظَ بِهِ النَّاسَ. فَتَفَكَّرْ فِيمَا قِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا ابْنَ مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظَتْ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحِ مِنْ رَبِّكَ». وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِهٰذَا الْعَمَلِ فَاحْتَرِزْ عَنْ خَصْلَتَيْنِ:

الْأُولَى - عَنِ التَّكَلُّفِ فِي الْكَلَامِ بِالْعِبَارَاتِ وَالْإِشَارَاتِ وَالطَّامَّاتِ وَالْأَبْيَاتِ وَالْأَشْعَارِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَالْمُتَكَلِّفُ الْمُتَجَاوِزُ عَنِ الْحَدِّ يَدُلُّ عَلَى خَرَابِ الْبَاطِنِ وَغَفْلَةِ الْقَلْبِ، وَمَعْنَى التَّذْكِيرِ أَنْ يَذْكُرَ الْعَبْدُ نَارَ الْآخِرَةِ وَتَقْصِيرَ نَفْسِهِ فِي خِدْمَةِ الْخَالِقِ. وَيَتَفَكَّرَ فِي عُمْرِهِ الْمَاضِي الَّذِي أَفْنَاهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَتَفَكَّرَ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَقَبَاتِ مِنْ عَدَمِ سَلَامَةِ الْإِيمَانِ فِي الْخَاتِمَةِ، وَكَيْفِيَّةِ حَالِهِ فِي قَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ، وَهَلْ يَقْدِرُ عَلَى جَوَابِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَيَهْتَمَّ بِحَالِهِ فِي الْقِيَامَةِ وَمَوَاقِفِهَا، وَهَلْ يَعْبُرُ عَنِ الصِّرَاطِ سَالِمًا أَمْ يَقَعُ فِي الْهَاوِيَةِ؟ وَيَسْتَمِرَّ بِذِكْرِ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي قَلْبِهِ فَيُزْعِجُهُ عَنْ قَرَارِهِ. فَعِلْمَانِ هٰذِهِ النِّيرَانِ وَنَوْحَةُ هٰذِهِ الْمَصَائِبِ يُسَمَّى تَذْكِيرًا.

وَإِعْلَامُ الْخَلْقِ وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ

31/10/2021 12:57

وَتَفْرِيطِهِمْ وَتَبْصِيرِهِمْ بِعُيُوبِ أَنْفُسِهِمْ لِتَمَسَّ حَرَارَةُ هٰذِهِ النِّيرَانِ أَهْلَ الْمَجْلِسِ وَتُجْزِعَهُمْ تِلْكَ الْمَصَائِبُ لِيَتَدَارَكُوا الْعُمْرَ الْمَاضِيَ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ وَيَتَحَسَّرُوا عَلَى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى. وَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى هٰذَا الطَّرِيقِ يُسَمَّى وَعْظًا. كَمَا لَوْ رَأَيْتَ أَنَّ السَّيْلَ قَدْ هَجَمَ عَلَى دَارِ أَحَدٍ، وَكَانَ هُوَ وَأَهْلُهُ فِيهَا.

فَتَقُولُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ، فِرُّوا مِنَ السَّيْلِ، وَهَلْ يَشْتَهِي قَلْبُكَ فِي هٰذِهِ الْحَالَةِ أَنْ تُخْبِرَ صَاحِبَ الدَّارِ خَبَرَكَ بِتَكَلُّفِ الْعِبَارَاتِ وَالنُّكَتِ وَالْإِشَارَاتِ فَلَا تَشْتَهِي الْبَتَّةَ، فَكَذٰلِكَ حَالُ الْوَاعِظِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَجْتَنِبَهَا.

وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ أَلَّا تَكُونَ هِمَّتُكَ فِي وَعْظِكَ أَنْ يَنْعَرَ الْخَلْقُ فِي مَجْلِسِكَ أَوْ يُظْهِرُوا الْوَجْدَ، وَيَشُقُّوا الثِّيَابَ لِيُقَالَ: نِعْمَ الْمَجْلِسُ هٰذَا لِأَنَّ كُلَّهُ مَيْلٌ لِلدُّنْيَا، وَهُوَ يَتَوَلَّدُ مِنَ الْغَفْلَةِ. بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَزْمُكَ وَهِمَّتُكَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَمِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَمِنَ الْحِرْصِ إِلَى الزُّهْدِ، وَمِنَ الْبُخْلِ إِلَى السَّخَاءِ، وَمِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ، وَمِنَ الْغَفْلَةِ إِلَى الْيَقْظَةِ، وَمِنَ الْغُرُورِ إِلَى التَّقْوَى، وَتُحَبِّبَ إِلَيْهِمُ الْآخِرَةَ وَتُبْغِضَ إِلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَتُعَلِّمَهُمْ عِلْمَ الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ، وَلَا تَغُرَّهُمْ بِكَرَمِ اللهِ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ وَرَحْمَتِهِ، لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي طِبَاعِهِمُ الزَّيْغُ عَنْ مَنْهَجِ الشَّرْعِ، وَالسَّعْيُ فِيمَا لَا يَرْضَى اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَالْاِسْتِعْثَارُ بِالْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ. فَأَلْقِ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَرَوِّعْهُمْ وَحَذِّرْهُمْ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِنَ الْمَخَاوِفِ، وَلَعَلَّ صِفَاتِ بَاطِنِهِمْ تَتَغَيَّرُ وَمُعَامَلَةَ ظَاهِرِهِمْ

31/10/2021 12:58

تَتَبَدَّلُ، وَيَتَظَهَّرُوا الْحِرْصَ وَالرُّغْبَةَ فِي الطَّاعَةِ، وَالرُّجُوعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وَهٰذَا طَرِيقُ الْوَعْظِ وَالنَّصِيحَةِ. وَكُلُّ وَعْظٍ لَا يَكُونُ هٰكَذَا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى مَنْ قَالَ وَسَمِعَ، بَلْ قِيلَ: إِنَّهُ غُولٌ وَشَيْطَانٌ يَذْهَبُ بِالْخَلْقِ عَنِ الطَّرِيقِ وَيُهْلِكُهُمْ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْهُ، لِأَنَّ مَا يُفْسِدُ هٰذَا الْقَائِلُ مِنْ دِينِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُ بِمِثْلِهِ الشَّيْطَانُ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ وَقُدْرَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْزِلَهُ عَنْ مَنَابِرِ الْمَوَاعِظِ، وَيَمْنَعَهُ عَمَّا بَاشَرَ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(وَالثَّالِثُ) مِمَّا تَدَعُ أَلَّا تُخَالِطَ الْأُمَرَاءَ وَالسَّلَاطِينَ وَلَا تَرَاهُمْ، لِأَنَّ رُؤْيَتَهُمْ وَمُجَالَسَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ آفَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَوِ ابْتُلِيتَ بِهَا، دَعْ عَنْكَ مَدْحَهُمْ وَثَنَاءَهُمْ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ وَالظَّالِمُ. وَمَنْ دَعَا لِطُولِ بَقَائِهِمْ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فِي أَرْضِهِ.

(وَالرَّابِعُ) مِمَّا تَدَعُ أَلَّا تَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ عَطَاءِ الْأُمَرَاءِ وَهَدَايَاهُمْ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهَا مِنَ الْحَلَالِ، لِأَنَّ الطَّمَعَ مِنْهُمْ يُفْسِدُ الدِّينَ، لِأَنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ الْمُدَاهَنَةُ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِمْ وَالْمُوَافَقَةُ فِي ظُلْمِهِمْ. وَهٰذَا كُلُّهُ فَسَادٌ فِي الدِّينِ، وَأَقَلُّ مَضَرَّتِهِ أَنَّكَ إِذَا قَبِلْتَ عَطَايَاهُمْ وَانْتَفَعْتَ مِنْ دُنْيَاهُمْ أَحْبَبْتَهُمْ. وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا يُحِبُّ طُولَ عُمْرِهِ وَبَقَائِهِ بِالضَّرُورَةِ. وَفِي مَحَبَّةِ بَقَاءِ الظَّالِمِ إِرَادَةٌ فِي الظُّلْمِ عَلَى عِبَادِ اللهِ تَعَالَى، وَإِرَادَةُ خَرَابِ الْعَالَمِ. فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَضَرَّ مِنْ هٰذَا لِلدِّينِ وَالْعَاقِبَةِ؟ وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يُخْدِعَكَ اسْتِهْوَاءُ الشَّيَاطِينِ أَوْ قَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ لَكَ بِأَنَّ الْأَفْضَلَ وَالْأَوْلَى أَنْ

تَأْخُذَ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ مِنْهُمْ وَتُفَرِّقَهُمَا بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَإِنَّهُمْ يُنْفِقُونَ فِي الْفِسْقِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَإِنْفَاقُكَ عَلَى ضُعَفَاءِ النَّاسِ خَيْرٌ مِنْ إِنْفَاقِهِمْ، فَإِنَّ اللَّعِينَ قَدْ قَطَعَ أَعْنَاقَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِهٰذِهِ الْوَسْوَسَةِ. وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي إِحْيَاءِ الْعُلُومِ، فَاطْلُبْهُ ثَمَّةَ.

وَأَمَّا الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَهَا:

(فَالْأَوَّلُ) أَنْ تَجْعَلَ مُعَامَلَتَكَ مَعَ اللهِ تَعَالَى بِحَيْثُ لَوْ عَامَلَ مَعَكَ بِهَا عَبْدُكَ تَرْضَى بِهَا مِنْهُ، وَلَا يَضِيقُ خَاطِرُكَ عَلَيْهِ وَلَا تَغْضَبُ، وَالَّذِي لَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ مِنْ عَبْدِكَ الْمَجَازِيِّ فَلَا تَرْضَى أَيْضًا لِلّٰهِ تَعَالَى وَهُوَ سَيِّدُكَ الْحَقِيقِيُّ.

(وَالثَّانِي) كُلَّمَا عَمِلْتَ بِالنَّاسِ اجْعَلْهُ كَمَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يُحِبَّ لِسَائِرِ النَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

(وَالثَّالِثُ) إِذَا قَرَأْتَ الْعِلْمَ أَوْ طَالَعْتَهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِلْمُكَ يُصْلِحُ قَلْبَكَ، وَيُزَكِّي نَفْسَكَ، كَمَا لَوْ عَلِمْتَ أَنْ عُمُرَكَ مَا يَبْقَى غَيْرَ أُسْبُوعٍ، فَبِالضَّرُورَةِ لَا تَشْتَغِلُ فِيهِ بِعِلْمِ الْفِقْهِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأُصُولِ وَالْكَلَامِ وَأَمْثَالِهَا، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذِهِ الْعُلُومَ لَا تُغْنِيكَ، بَلْ تَشْتَغِلُ بِمُرَاقَبَةِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَةِ صِفَاتِ النَّفْسِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا. وَتُزَكِّي نَفْسَكَ عَنِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، وَتَشْتَغِلُ بِمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ، وَالِاتِّصَافِ بِالْأَوْصَافِ الْحَسَنَةِ، وَلَا يَمُرُّ عَلَى عَبْدٍ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِلَّا وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْتُهُ فِيهِ.

31/10/2021 12:58

أَيُّهَا الْوَلَدُ، اسْمَعْ مِنِّي كَلَامًا آخَرَ وَتَفَكَّرْ فِيهِ حَتَّى تَجِدَ خَلَاصًا. لَوْ أَنَّكَ أُخْبِرْتَ أَنَّ السُّلْطَانَ بَعْدَ أُسْبُوعٍ يَجِيئُكَ زَائِرًا، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ لَا تَشْتَغِلُ إِلَّا بِإِصْلَاحِ مَا عَلِمْتَ أَنَّ نَظَرَ السُّلْطَانِ سَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْبَدَنِ وَالدَّارِ وَالْفِرَاشِ وَغَيْرِهَا، وَالْآنَ تَفَكَّرْ إِلَى مَا أَشَرْتُ بِهِ فَإِنَّكَ فَهِمٌ، وَالْكَلَامُ الْفَرْدُ يَكْفِي الْكَيِّسَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ». وَإِنْ أَرَدْتَ عِلْمَ أَحْوَالِ الْقَلْبِ فَانْظُرْ إِلَى «الْإِحْيَاءِ» وَغَيْرِهِ مِنْ مُصَنَّفَاتِي. وَهٰذَا الْعِلْمُ فَرْضُ عَيْنٍ، وَغَيْرُهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، إِلَّا مِقْدَارَ مَا يُؤَدَّى بِهِ فَرَائِضُ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ يُوَفِّقُكَ حَتَّى تُحَصِّلَهُ.

(وَالرَّابِعُ) أَلَّا تَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنْ كِفَايَةِ سَنَةٍ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَعُدُّ ذٰلِكَ لِبَعْضِ حُجَرَاتِهِ وَقَالَ: «اللّٰهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا». وَلَمْ يَكُنْ يَعُدُّ ذٰلِكَ لِكُلِّ حُجَرَاتِهِ بَلْ كَانَ يَعُدُّهُ لِمَنْ عَلِمَ أَنَّ فِي قَلْبِهَا ضُعْفًا. وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ صَاحِبَةَ يَقِينٍ فَمَا كَانَ يَعُدُّ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ قُوتِ يَوْمٍ أَوْ نِصْفٍ.

أَيُّهَا الْوَلَدُ، إِنِّي كَتَبْتُ فِي هٰذَا الْفَصْلِ مُلْتَمِسَاتِكَ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْمَلَ بِهَا وَلَا تَنْسَانِي فِيهِ مِنْ أَنْ تَذْكُرَنِي فِي صَالِحِ دُعَائِكَ، وَأَتَمُّ الدُّعَاءِ الَّذِي سَأَلْتَ مِنِّي فَاطْلُبْهُ مِنْ دَعَوَاتِ الصِّحَاحِ، وَاقْرَأْ هٰذَا الدُّعَاءَ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِكَ خُصُوصًا أَعْقَابَ صَلَوَاتِكَ:

31/10/2021 12:58

«اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ النِّعْمَةِ تَمَامَهَا، وَمِنَ الْعِصْمَةِ دَوَامَهَا، وَمِنَ الرَّحْمَةِ شُمُولَهَا، وَمِنَ الْعَافِيَةِ حُصُولَهَا، وَمِنَ الْعَيْشِ أَرْغَدَهُ، وَمِنَ الْعُمْرِ أَسْعَدَهُ، وَمِنَ الإِحْسَانِ أَتَمَّهُ، وَمِنَ الإِنْعَامِ أَعَمَّهُ، وَمِنَ الْفَضْلِ أَعْذَبَهُ، وَمِنَ اللُّطْفِ أَنْفَعَهُ.

اللّٰهُمَّ كُنْ لَنَا وَلَا تَكُنْ عَلَيْنَا.

اللّٰهُمَّ اخْتِمْ بِالسَّعَادَةِ آجَالَنَا، وَحَقِّقْ بِالزِّيَادَةِ آمَالَنَا، وَاقْرِنْ بِالْعَافِيَةِ غُدُوَّنَا وَآصَالَنَا، وَاجْعَلْ إِلَى رَحْمَتِكَ مَصِيرَنَا وَمَآلَنَا، وَاصْبُبْ سِجَالَ عَفْوِكَ عَلَى ذُنُوبِنَا، وَمُنَّ عَلَيْنَا بِإِصْلَاحِ عُيُوبِنَا، وَاجْعَلِ التَّقْوَى زَادَنَا، وَفِي دِينِكَ اجْتِهَادَنَا، وَعَلَيْكَ تَوَكُّلَنَا وَاعْتِمَادُنَا، اللّٰهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى نَهْجِ الاِسْتِقَامَةِ وَأَعِذْنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مُوجِبَاتِ النَّدَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَخَفِّفْ عَنَّا ثِقَلَ الْأَوْزَارِ، وَارْزُقْنَا عَيْشَةَ الْأَبْرَارِ، وَاكْفِنَا مَا أَهَمَّنَا فِي هٰذِهِ الدَّارِ وَفِي تِلْكَ الدَّارِ، وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الْأَشْرَارِ، وَكَيْدَ الْفُجَّارِ وَأَعْتِقْ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَإِخْوَانِنَا وَأَخَوَاتِنَا مِنَ النَّارِ، بِرَحْمَتِكَ يَا عَزِيزُ يَا غَفَّارُ، يَا كَرِيمُ يَا سَتَّارُ، يَا خَالِقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، خَلِّصْنَا مِنْ هَمِّ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَالنَّارِ يَا عَلِيمُ يَا جَبَّارُ، يَا اللهُ يَا اللهُ يَا اللهُ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا أَوَّلَ الْأَوَّلِينَ، وَيَا آخِرَ الْآخِرِينَ، وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، وَيَا رَاحِمَ الْمَسَاكِينِ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

31/10/2021 12:58